بمناسبة اليوم العالمي للمرأة : كانت .. فأصبحت .. ويريدونها

الأربعاء 8 مارس 2017 12:03 م

كتب: محمد عبد الرحمن صادق

محمد عبد الرحمن صادق :

المرأة يا لها من كلمة! حارت لها القلوبُ والعقول، وجمعت كلَّ المتناقضات في كائن واحد

انخلعتْ لها قلوب الرجال، وطاشت بسببها عقولُ الشباب، وتغنَّى بجمالها الشعراء والأدباء، واستأنس بمودَّتها الأزواجُ العقلاء، ودسَّها في التراب قساةُ القلوب الجاحدون، واعتبرها عارًا وعورة، وقذرًا وأذًى مَن سُلِبت الحكمة من عقولهم والرحمة من قلوبهم، واتَّخذها متاعًا وشهوة من جُرِّدوا من إنسانيتهم

وجاء الإسلام، فما رضي لها إلَّا أن تكون أمًّا حنونًا، وأختًا عطوفًا، وزوجة مُكرمة، وبنتًا رؤومًا، وسيدة مُبجلة

أولًا: مكانة المرأة في الحضارات والأديان قبل الإسلام:

لقد اختلفتْ مكانة المرأة على مرِّ العصور؛ فأحيانًا نراها ملِكة مُتوجة، مَصونة ومُهابة الجناب، وأحيانًا كثيرة نراها وضيعةً مُحتقرة مهضومة الحقوق، لا قدر لها ولا وزن؛ بل هي ومتاع البيت وأساسه ودوابه سواءٌ بسواء

1 - المرأة في ظلِّ الحضارة المصرية الفرعونية: (بدأت الحضارة المصرية الفرعونية في حوالي العام 3150 ق م، عندما وحَّد الملِك مينا مصر العليا والسفلى، واستمرت حوالي 3 آلاف سنة).

اهتمَّت الحضارة الفرعونية بالمرأة كل اهتمام، ويكفينا أن نقرأ هذه السطور لنعرف مدى تقدير المصريين القدماء للمرأة؛ حيث وصى أحدهم بالمرأة قائلًا:

• "إذا كنت عاقلًا فأجد تموين بيتك، وأحبب امرأتك ولا تشاحنها، وغذِّها وزيِّنها، وعطرها ومتِّعها ما حييت؛ فهي ملك يجب أن تكون جديرة بالمالك، ولا تكن معها فظًّا غليظًا".

• ظل الحال هكذا إلى أن جاء البطالمة لحكم مصر، فتغيَّر الحال، وحطوا من مَكانة المرأة ومنزلتها، وأهانوها إهانة بالغة

2 - وفي ظلِّ الحضارة البابلية:

(كانت الحضارة البابلية بين القرنين 18 ق م، و6 ق م، وبابل دولة أسَّسها حمورابي في بلاد ما بين النهرين "العراق حاليًّا").

كانت المرأة في الحضارة البابلية مهضومة الحقوق؛ فلا ترث ولا تمتلك؛ بل كانت تورث للغير كما كانت تورث الدواب والمنقولات، وأحيانًا كانت توهب للغير وتستخدم في سداد الديون، ومن حقِّ الرجل أن يُسخِّرَها فيما يشاء، ويحكم عليها بما شاء، وذكر هيرودوت أنَّه كان على كل امرأة بابلية أن تقدِّم نفسها لما يسمونه بالدعارة المقدسة ولو مرة واحدة في حياتها

3 - وفي ظل الحضارة الفارسية:

(كانت الإمبراطورية الفارسية شرق وشمال شبه الجزيرة العربية، تأسَّست الإمبراطورية الفارسية عام 559 ق م، بواسطة الملك كورش).

لاقت المرأة في ظلِّ الحضارة الفارسية نفسَ ما لاقته في ظل الحضارة البابلية، وزادوا على ذلك اعتبارها مخلوقًا نجسًا يجب تجنُّبه، وخاصَّة في أيام الحيض والنفاس، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك قانون لتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة، فكانت مَشاعًا لكل راغب، بغضِّ النظر عن درجة قرابتها للرجل، وشجع على ذلك ملكهم (مزدك)، الذي ادَّعى أن الله بعثه ليأمر بذلك.

• وعلى الجانب الآخر كانت الطَّبقة الحاكمة ومَن هم في مستواها يقومون بحجب النساء حجبًا كُليًّا؛ فلا يسمح لها برؤية أب ولا أخٍ بعد الزواج؛ بل كانوا يقومون بخصي من يشرف على خدمتهنَّ من الغلمان.

4 - وفي ظل الحضارة اليونانية:

(بدأت الحضارة اليونانية عام 1100 ق م، وامتدَّت حتى عام 146 ق م).

كان اليونانيون يعتبرون المرأة مخلوقًا مُنحطًّا؛ لزعمهم أنَّها مصدر للمصائب التي تحيط بالرجل.

• لقد شبهها فيلسوفهم سقراط بالشجرة المسمومة؛ ظاهرها جميل، ولكن عندما تأكل منها العصافيرُ فإنَّها تموت.

• وكان من أقوال الفيلسوف أرسطو: "إن المرأة للرجل كالعبد للسيِّد، والعامل للعالم، والبربري لليوناني؛ لأنَّ الرجل أعلى منزلة منها".

• ورأى أفلاطون في مدينته الفاضلة أن تكون المرأة ذات الجسم السليم الخالي من العيوب البدنيَّة متاعًا مشاعًا للرجال الأصحاء الأقوياء لإنجاب أطفال أصحاء.

5 - وفي ظلِّ الحضارة الرومانية:

(بدأت الحضارة الرومانية عام 275 ق م، بدأت من إيطاليا، وامتدت إلى باقي أوروبا وبعض الأجزاء من آسيا).

لم تكن المرأة في الحضارة الرومانية أفضل حالًا من الحضارات السابقة، وتشهد على ذلك المسارح والمعابد والهياكل والعمارة الرومانيَّة، التي تَحمل على جدرانها كلَّ مظاهر الخلاعة والميوعة والتبرُّج، بل والعري المشين، وكانت الدعارة تمارس داخل الهياكل الرومانية وبين مذابحها.

6 - وفي ظلِّ اليهودية:

اعتقد اليهود أن حوَّاءَ هي المسؤولة عن طرد آدم من الجنَّة، فكانت الخطيئة الأولى التي أصابت البشر، والمرأة في التوراة نجسة في المحيض لمدَّة سبعة أيام، فكل ما تلمسه من طعام أو كساء أو إنسان وحيوان ينجس.

• جاء في سفر التكوين أنَّه كان للأب الحقُّ المطلق في أن يزوِّجها بمن يشاء، وكانت تُشترى منه عند نكاحها؛ لأن المهر كان يُدفع لأبيها أو لأخيها على أنَّه ثمن شراء، ثم تصير مملوكة لزوجها، وهو سيدها المُطلق.

• وجاء في سفر الخروج أنَّ المرأة كانت في المجتمع اليهودي مملوكة لأبيها قبل الزَّواج، وكان في وسعه إن كان فقيرًا أن يبيعها قبل أن تَبلغ الحلم لتكون جارية.

• وجاء في سفر الإصحاح أنَّ المرأة عندهم في مكانة دُنيا تنزلق إلى مستوى الماشية والأشياء؛ فهي جزء من البيت الإسرائيلي الذي يتكوَّن من المرأة والعبد، والثورِ والحمار، والأشياء الأخرى.

• وجاء في التلمود أنَّ اليهودي لا يُخطئ إذا اعتدى على عرض الأجنبية؛ لأنَّ كل عقد نِكاح عند الأجانب فاسد؛ لأنَّ المرأة غير اليهودية تُعد بهيمة، والعقد لا يوجد بين البهائم.

• وجاء في التلمود أيضًا أنَّ اللواط بالزوجة جائز لليهود؛ لأنَّ الزوجة بالنسبة للاستمتاع كقطعة اللَّحم التي اشتراها، ويمكنه أكلها مسلوقة أو مشوية حسب رغبته.

7 - وفي ظل المسيحية:

بالرغم من أنَّ المسيحية قد أعطت للمرأة بعضَ حقوقها التي سلبتْها الحضارات والعقائد والمفاهيم السابقة، إلَّا أن المسيحية هي الأخرى عاملت المرأة على أنَّها مخلوق أقل درجة من الرجل؛ فالمسيحية اعتبرت أن الرجل قد خُلق على صورة الله، أمَّا المرأة فإنها مَخلوقة من جنب الرجل، ولقد تعامل رجال الدين المسيحي على أنَّ المرأة ساقِطة المكانة، وأنها خُلقت للرجل.

• ورجال الدين في المسيحية يعتبرون أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة نجس يجب أن تُجتنب ولو كانت عن طريق نِكاح وعقد رسمي

مشروع، ومن هنا ساد في المسيحية الاعتقاد بأنَّ العزوبة أفضل من الزواج

• قال بولس: "إنَّ من يزوِّج ابنته يأتي عملًا طيبًا، ولكن مَن لا يزوجها يأتي ما هو خير".

• ومن هنا سارت الرهبانية والعزوبة جنبًا إلى جنب بجوار تفشِّي الفجور والإباحية

ولقد سادت فكرة أنَّ التعاويذ والأذكار تغفر هذه الممارسات، حتى تطوَّرتْ فيما بعد لفكرة (صكوك الغفران)، التي هي عبارة عن الإعفاء الكامل أو الجزئي من العقاب الدنيوي على الخطايا التي تمَّ الصَّفح عنها، ويتم منح هذه الصكوك من الكنيسة مقابل مبلغ من المال بعد أن يَعترف الشخص الآثِم بخطاياه ويتوب عنها

8 - وفي ظل البلاد العربية قبل الإسلام:

بلغ التناقض في أحوال المرأة العربية قبل الإسلام مداه؛ فنراها أحيانًا ملِكة مُتوجة ومَصونة، تُجيش الجيوش وتخوض الحروب وبيدها مقاليد الأمور، مثل الملكات: (زنوبيا - بلقيس - زبيبة - شمسي - يطيعة - يافا - عادية... وغيرهن).

• وأحيانًا أخرى نراها البنت التي تُوءَد، والجارية التي تُباع وتشترى، والمرأة مَهضومة الحقوق؛ التي لا تَملِكُ ولا ترث، وليس لها من أمر نفسها شيء؛ فهي ملكٌ لسيدها أو لزوجها أو للورثة من بعدهم، يُكرهونها على البغاء ليأخذوا أجرها... إلى غير ذلك من الممارسات التي حطت من قدر المرأة ومكانتها

ثانيًا: المرأة في ظل الإسلام:

لقد اهتمَّ الإسلام بالمرأة أيما اهتمام، ولقد عرض القرآن الكريم الكثير من أحوال المرأة، ونظم أحكامها في أكثر من عشر سور من القرآن الكريم؛ بل إنَّ هناك سورتين في القرآن الكريم عُرفت إحداهما بسورة النساء الكُبرى؛ وهي سورة النساء، والأخرى عرفت بسورة النِّساء الصُّغرى؛ وهي سورة الطلاق

1 - بعض الآيات التي تحدَّثتْ عن المرأة في القرآن الكريم: على عكس الحضارات والأديان السابقة؛ فلقد جاء الإسلام ليرفع مكانةَ المرأة من الثرى إلى الثريا؛ فجعل منها أمًّا حنونًا، وأختًا عطوفًا، وزوجة مُكرمة، وبنتًا رؤومًا، وسيدة مُبجلة، فلم يفرِّق الإسلام بين الرجل والمرأة تفريقًا مُجحفًا يسلبُها حقَّها؛ بل تفريقًا يميزها، ويُعلي من شأنها، ويتوافق مع فطرتها التي فطرها الله تعالى عليها

• قال تعالى: (... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: 228].

• قال تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...) [آل عمران: 195].

• قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء: 1].

• قال تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) [النساء: 7].

• قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم: 21].

• قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) [لقمان: 14].

• قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: 13].

2 - المرأة في السنَّة النبويَّة المطهَّرة: كما أنصف القرآن الكريم المرأةَ فكذلك السنَّة النبوية زاخرة وعامرة بالعديد من الأحاديث والمواقف التي تُعلي من قَدر المرأة؛ ابنةً، وزوجة، وأمًّا، وأختًا، وجارة، وكذلك عموم النساء

أ) عن عقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن كان له ثلاث بنات، فصبَرَ عليهنَّ وأطعمهنَّ وسقاهن وكساهن من جِدَتِه، كنَّ له حِجابًا من النار يوم القيامة))؛ (رواه ابن ماجه وأحمد، وصححه الألباني).

ب) عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلتْ عليَّ امرأة ومعها ابنتان لها تَسأل، فلم تجد عندي شيئًا غير تَمرة واحدة، فأعطيتُها إياها، فدخل صلى الله عليه وسلم علينا فأخبرتُه فقال: ((من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسَنَ إليهنَّ، كنَّ له سترًا من النار))، وفي لفظ: ((مَن ابتُلي من البنات فصبر عليهنَّ، كن له حجابًا من النار))؛ (رواه البخاري ومسلم والترمذي).

ج) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثِر ولده

عليها - يعني الذُّكور - أدخله الله الجنَّة))؛ (رواه أبو داود).

د) عن عبدالله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما قال: جاءت فتاة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "إنَّ أبي زوَّجني من ابن أخيه ليرفع بي خَسيستَه"، فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأمرَ إليها، فقالت: "قد أجزتُ ما صَنع أبي، ولكن أردتُ أن تعلم النساء أنْ ليس إلى الآباء من الأمر شيء"؛ (رواه ابن ماجه وأحمد والنسائي).

هـ) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: ((فاتَّقوا اللهَ في النساء؛ فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكم عليهنَّ أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تَكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهن بالمعروف))؛ (رواه مسلم).

و) عن معاوية بن جاهمة رضي الله عنه، أن جاهمة جاء إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أردتُ أن أغزو وقد جئتُ أستشيرك، فقال: ((هل لك من أمٍّ؟))، قال: نعم، قال: ((فالزمْها؛ فإنَّ الجنةَ عند رِجلها))؛ (رواه أحمد والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان).

ز) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: إنِّي أذنبت ذنبًا عظيمًا، فهل لي من توبة؟ فقال: ((هل لك من أمٍّ؟))، قال: لا، قال: ((فهل لك من خالة؟))، قال: نعم، قال: ((فبِرَّها))؛ (رواه الترمذي واللفظ له).

• ولمكانة المرأة في الإسلام، ولحريتها في اختيار مَن يتزوجها؛ رُوِي أنَّ أم كلثوم بنت أبي بكر رفضتْ أن تتزوَّج عمر بن الخطاب، فقالت لها أختها عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنَّه خشِن العيش، شديد على النِّساء، وكذلك رفضت بنت عبدالرحمن بن الحارث أن تتزوَّج عبدالملك بن مروان وآثرَتْ عليه يحيى بن عبدالحكم، كما فضلتْ عائشة بنت طلحة ابنَ عمها على بشر بن مروان

• وعلاوة على كل ذلك، فلقد احترم الإسلام حقَّ المرأة في الميراث، وسمح أن يكون لها ذمَّة ماليَّة خاصة، ولم يَحرمها من حقِّها في التعليم وتقلُّد المناصب التي تتناسب مع فطرتها التي فطرها الله تعالى عليها إلى غير ذلك من الحقوق التي لم تَحظ بها في ظلِّ أي حضارة أو ديانة أخرى

• وهكذا ظلَّت هذه الروح ساريةً، وهذه المبادئ مُمتدة، تنظم للمرأة شؤونها، وتُعلي من قدرها ومكانتها، دون تغيير أو تبديل إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومَن عليها

ولكن للأسف نرى بين الحين والآخر بعضَ الغربان تنعق محاولةً طَمْسَ هذه المعالم، وإهدار هذه الحقوق، تحت ما يسمُّونه المساواة، وكذلك نرى خفافيش الظلام التي تحاول أن تجرَّ المرأة إلى مستنقع الرذيلة وإعادتها إلى سابق عهدها في ظلِّ الأزمان الغابرة تحت ما يسمونه الحرية فالمساواة التي يطالبون بها لا تتفق مع فطرة المرأة التي فطرها الله عليها والحرية التي يروجون لها تجعلها كلأ مشاع لكل طامع وديننا كما قلنا يريدها أمًّا حنونًا، وأختًا عطوفًا، وزوجة مُكرمة، وبنتًا رؤومًا، وسيدة مُبجلة .

نداء إلى المتشدقين بيوم المرأة وحقوقها

- يا سادة .. برهنوا على صدق نواياكم وشعاراتكم بالمطالبة بحقوق المعتقلات في الحرية .

- يا سادة .. برهنوا على صدق نواياكم وشعاراتكم بالمطالبة بحقوق أمهات المعتقلين وزجاتهم وبناتهم في حياة أسرية كريمة في كنف ذويهم .

- فإن سمعنا لكم في هذا الجانب صوتاً تكونوا قد برهنتم على صدق نواياكم وشعاراتكم ، ولكن قبل ذلك فسأكررها أنكم مجرد غربان تنعق وخفافيش لا تعرف العيش إلا في الظلام وما تريدون من المرأة إلا جسدها المجرد من العقل والروح وما تريدونها سوى دُمية تلهون بها فلا تختار مستقبلها ولا تقرر مصيرها .

المقال يعبر عن رأي كاتبه، ولايعبر بالضرورة عن رأي نافذة مصر